



قرى الحوض المائي لوادي الشعرة بجبل وسلات: الخصائص المجالية والخصوصيات المعمارية

* جهاد الصويد

الملخص

يمثل جبل وسلات الواقع شمال مدينة القيروان أحد أهم المرتفعات الجبلية على مستوى امتداده الجغرافي وعلى مستوى كثافة أوديته ومجاريه المائية وعلى مستوى تنوع مواقعه الأثرية وأهمية قراه الجبلية وتعدد معالمه التاريخية، وقد ساهمت المجاري المائية التي تنتظم على شاكلة أحواض مائية تخترق الجبل من كامل جهاته ساهمت في رسم مختلف أقسام الجبل وفي توزع القرى والبلدات داخله.

ويبرز وادي الشعرة كأحد أهم المجاري المائية بالقسم الشمالي الغربي لجبل وسلات حيث يُقدّم حوضاً مائياً هاماً على مستوى المساحة وعلى مستوى عدد القرى الجبلية به، وهو حوض مائي سمح بتشكّل مجالات داخلية تشترك فيما بينها على مستوى تهيئة المجال وانتظام توزّعها وتشابه خصائصها المعمارية.

الكلمات المفتاحية: جبل وسلات، القيروان، الأحواض المائية، القرى الجبلية، وادي الشعرة.

Résumé

Situé au Nord de la ville de Kairouan, Le Jebel Ousselat est l'un des plus importants massifs montagneux de la région. Il se caractérise par la densité de ses réseaux hydrographiques, la diversité et la richesse de son patrimoine archéologique et historique et l'importance de son occupation traduite par le nombre important de ses villages.

A Jebel Ousselat, le réseau hydrographique est un remarquable révélateur d'une certaine dimension de l'organisation de l'espace occupé. L'oued Chaara est le plus important cours d'eau de la partie nord-ouest de la montagne. Son bassin versant couvre une superficie assez étendue et compte un nombre important de bourgades et de villages. Ce trait naturel a permis la configuration d'espaces internes qui se partagent les mêmes caractéristiques spatiales et spécificités architecturales.

Mots-clés : Jebel Ousselat, Kairouan, bassins versants, villages de montagne, Oued Chaara.

Abstract

Located north of the town of Kairouan, Jebel Ousselat is one of the most important mountain ranges in the region. It is characterized by the density of its hydrographic

* مكلف بالبحوث الأثرية والتاريخية، المعهد الوطني للتراث.



networks, the diversity and richness of its archaeological and historical heritage and the importance of its occupation reflected by the large number of its villages.

In Jebel Ousselat, the hydrographic network is a remarkable indicator of a certain dimension of the organization of the occupied space. The Chaara wadi (currently dry) is the most important watercourse in the northwest part of the mountain. Its watershed, which has a large surface area, has several villages. This natural feature allowed the configuration of internal spaces which share the same spatial characteristics and architectural specificities.

Keywords: Jebel Ousselat, Kairouan, watersheds, mountain villages, Oued Chaara.

جهاد الصويد، « قرى الحوض المائي لوادي الشعرة بجبل وسلات: الخصائص المكانية والخصوصيات المعمارية
«، السبيل : مجلة التاريخ والآثار والعمارة المغاربية [نسخة الكترونية]، عدد 15، سنة 2023.

URL : <https://al-sabil.tn/?p=7332>

المقدمة

يبرز جبل وسلات كمرتفع جبلي متوسط الارتفاع وشاسع الامتداد ينتمي إلى سلسلة داخلية شرقي الظهيرية التونسية تفصل بين سهل الوسلاتية وسهول القيروان¹. ويقدم الجبل على مستوى التضاريس كثافة ملفتة للمجاري المائية الموروثة عن الأزمنة الجيولوجية منذ آلاف السنين وهي مجاري ساهمت في نحت الجبل وفي رسم أقسامه وأحواضه المائية. ويمثل وادي الشعرة أحد أهم الأودية بالقسم الشمالي الغربي لجبل وسلات² سواء على مستوى حجم روافده التي تخترق الجبل من جزئه الشمالي الغربي أو على مستوى المساحة التي يغطيها وهو يقدم حوضا مائيا متفردا تمتد به مواقع ومعالم تنتظم وفق تقسيم مجالي خاص وتمتد بها معالم أثرية ذات خصوصيات محلية، فماهي تجليات تفرد هذا المجال؟

1. الانتظام المجالي لقرى الحوض المائي بوادي الشعرة: "الوادي" و"البلاد"

يكون وادي الشعرة على المستوى الجغرافي حوضا مائيا له حدوده الواضحة ويقدم مجالا طوبوغرافيا تتوزع داخله مجالات ومناطق وقرى ومعالم مختلفة. ويتغذى واد الشعرة من ثلاث روافد أساسية تنبع من عمق الجبل الذي ينتمي إلى سلسلة جبلية داخلية ويبدو كتلة صخرية من الطبقات الكلسية السمكية³ وهي روافد تتميز بعمق مجاريها وبتشعب وتنوع أشكالها الطوبوغرافية التي تتالت فيها الذروات والأعراف الجبلية مثلت مواضع لتشييد بلدات وقرى ووقرت مساحات للغراسات والزراعة (الخريطة 1).

وتتوزع هذه الأشكال الطوبوغرافية حول الروافد الثلاث لواد الشعرة مكونة ثلاث مناطق جغرافية تمثل في نفس الوقت ثلاث مناطق أثرية تُعرف المنطقة الواحدة منها لدى السكان "بالبلاد" وهو مصطلح شديد التواتر في داخل الجبل وخارجه⁴.

وتتالي الروافد الثلاثة لواد الشعرة والمناطق الجغرافية التي تنتظم حولها من الشمال إلى الجنوب كالتالي أولها "وادي الخلوات" الذي يظم "بلاد القيطون" ثم نجد جنوبه "وادي ملقى الوديان" الذي يتطابق مع بلاد حمامة يليهما "وادي بالهاني" والذي يشمل بلاد البطمة وتقدم كل بلاد قرى ومعالم تختلف طبيعتها حسب موقعها من الجبل (الخريطة 2).

ويمثل خط تقسيم المياه la ligne de partage des eaux الحد الفاصل بين كل بلاد وأخرى والعبارة المعتمدة لدى السكان وفي وثائق الملكية بكامل الجهة هي "تبازيع الماء"⁵ حيث تُعتبر ذروات كاف القيطون حدا فاصلا بين بلاد القيطون وبلاد حمامة وتمثل ذروات "واد القراج" حدا فاصلا بين بلاد حمامة والبطمة.

¹ F. Frémont, 1968, p. 11.F

² يمثل واد الشعرة أحد أهم روافد وادي مرق الليل.

³ J. Despois, 1959, p. 409 ; M. M. Turki, 1988, p. 31 ; S. Bergaoui et A. M. Gammar, 1992, p. 200 ;

الوسلاقي عامر، 1994، ص 51.

⁴ ذكر Despois تسميات لم تعد موجودة حاليا هي "بلاد اللوز" و"بلاد العرّاسة" و"بلاد النحالة" بالإضافة إلى "بلاد القيطون وبلاد حمامة"، ولم نجد في الخرائط الطوبوغرافية تسميات البلاد إلا في المنحدر الشرقي لجبل وسلات "بلاد النحالة"، وقد ذكر أيضا رياض المرابط تسمية "بلاد الجاهلية"، أنظر:

- المرابط رياض، 2009، ص 147-150.

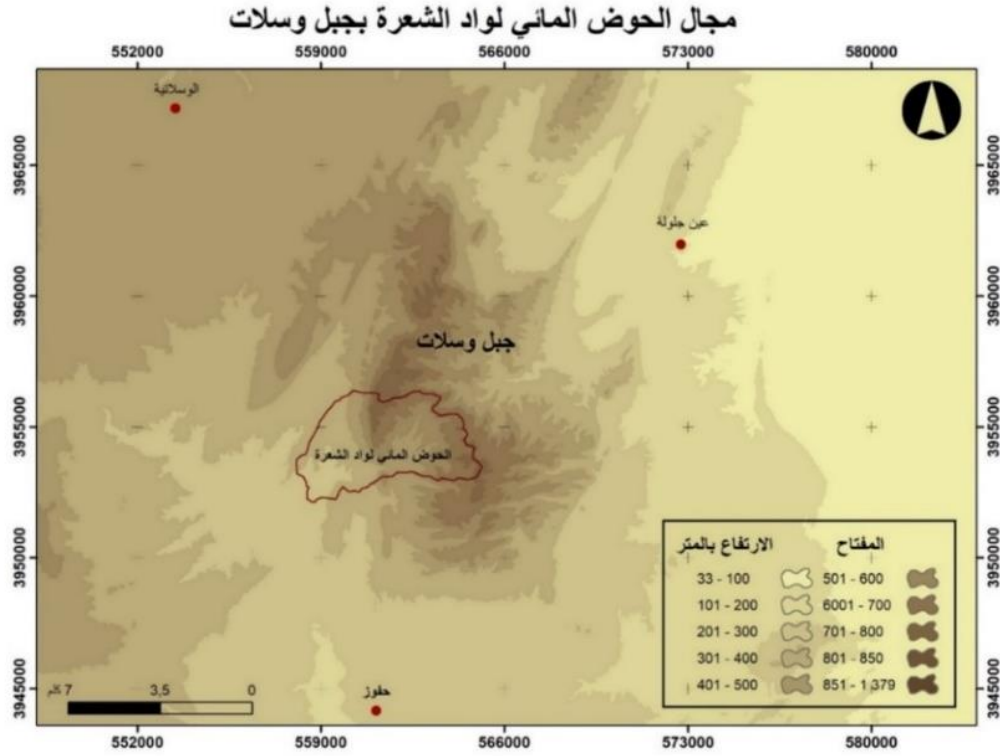
- J. Despois, 1959, p. 415.

- الخريطة الطوبوغرافية 1/50000 حفوز رقم 62.

⁵ أنظر على سبيل المثال المصطلحات المستعملة خلال القرن 17 م في وصف حدود قرية بني عتاب بجبل السرج (سيدي حمادة): الصويد جهاد، 2015، ص 82. الصويد، 2021، ص 91.

1.1. بلاد القيطون

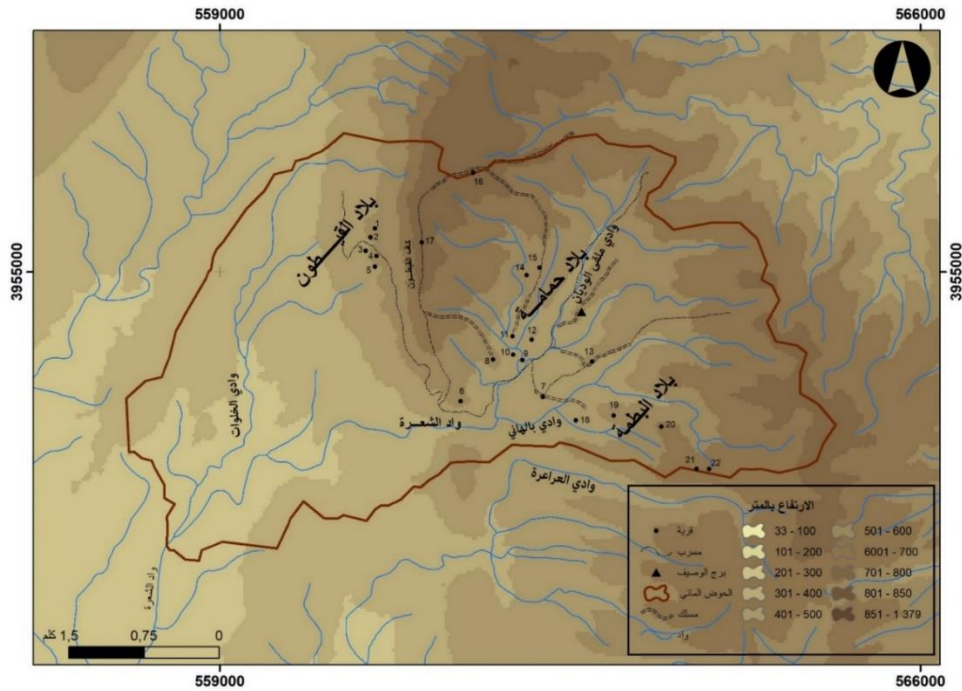
بلاد القيطون هي المنطقة المعروفة حاليا بالقيطون⁶ وهي تشمل مجموعة من التلال التي تتقدم جبل وسلات من الجزء الشمالي الغربي وهي تلال تمتد مباشرة أسفل "كاف القيطون" الذي يحتوي على أحد أعلى النقاط بجبل وسلات (812 م). وتمتد هذه البلدات أسفل "كاف القيطون" فوق ذروات يبلغ ارتفاعها 450 م تقريبا وهي تتوسط تهيئة زراعية تقوم على استغلال المنحدرات المحيطة بها وتهيئتها بمساطب Terrasses (الصورة 1).



الخريطة 1. مجال الحوض المائي لوادي الشعرة بجبل وسلات.
المصدر: رسم الكاتب.

وتتنظم هذه التلال شرقي "واد الخلوات" أين تتوزع بها خمس بلدات صغيرة هي على التوالي من الشمال إلى الجنوب "سيدي زقّام" (رقم 1 في الصورة) و"بو مياسة" (رقم 2) وهما بلدتان شُيدت فوق أُسُسهما مباني حديثة ولم يعد يبرز بهما سوى بعض الجدران في طرفيهما. أما باقي البلدات والتي حافظت على امتدادها فهي "دار الزيت" (رقم 3) ثم "سيدي عمر البكوش" (رقم 4) التي وقع استغلال جزء منها كمقبرة مستحدثة ثم "دار الحيط" (رقم 5).

⁶ كانت المنطقة تُعرف أيضا ببلاد القيطون حسب ما دُوَّنه Despois في النصف الأول من القرن العشرين من روايات سكان أسفل الجبل، أنظر: J. Despois, 1959, p. 415.



الخريطة 2. توزع القرى بالحوض المائي لوادي الشعرة.⁷

المصدر: رسم الكاتب.

ولا تزال تبرز بهذه البلدات معالم سكنية يغلب على غُرفها الامتداد الطولي مع محدودية العرض الذي لا يتجاوز 2 م في أقصى الحالات، وقد أمكن الوقوف على خمسة أحواش بدار الحيط وثلاثة بسيدي البكوش وخمسة أيضا بدار الزيت. وتقدم بلاد القيطون بحكم موقعها الطرقي من الجبل وقربها من المنخفضات السهلية واحد من الآبار القليلة التي تنتشر حول الجبل وهو المعروف ببئر القيطون كما تحتوي المنطقة على شواهد لتهيئة مائية عبر استغلال الشقوق الصخرية في الطبقة الكلسية ووضع ملاط عازل على غلافها الخارجي وتشديد سقف على شاكلة قبو في بعضها.

وُقدّم منطقة القيطون في مستوى الطرف الشرقي لبلدة دار الزيت مسجدا انهار بالكامل وحافظ على أسس جدرانه الخارجية وعلى جدار قبلته وحنيتها النائثة في محوره بالإضافة إلى الأعمدة الحجرية التي كانت تقسمه إلى ثلاث بلاطات متعامدة مع جدار القبلة وثلاثة أساكيب، كما تبرز بالقيطون أيضا بقايا معصرة زيتون لا تزال بعض عناصرها المعمارية قائمة وهي تمتد في الطرف الشمالي لدار الزيت.

ولا يزال المسلك الأصلي المُفضي إلى هذه البلدات قائما إلى حد الآن يكون عرضه في حدود 4 م على أقصى تقدير تحف بطرفيه جدران معدل ارتفاعها في حدود المتر وتحف بها أيضا صفوف من الصبار هي على الأرجح من بقايا التهيئة التي قام بها الوسائل التي ميزت مشاهد قرى جبل وسلات قبل قرار الباي إخلاء الجبل، فقد تحدثت مصادر القرن 18 م مثلا عن قرى وسلات وبلداتها التي كانت تتوسط في الغالب أشجار الصبار أو "شجر الهندي"⁸.

⁷ 1: سيدي زفام، 2: بو مياسة، 3: دار الزيت، 4: سيدي عمر البكوش، 5: دار الحيط، 6: دار بن قملة، 7: بلد فيض الخصومة، 8: الطرابلسين، 9: بلد الوطا، 10: خنيفسة، 11: بلد الجاهلية، 12: كتف البلد، 13: الهنشير، 14: القليعة، 15: بلد ذراع البلوطة، 16: بلد هنشير الضرو، 17: بلد المجيرة، 18: البطملة، 19: السند، 20: دار ملّاح، 21: الشندوب، 22: سيدي بوحديد.

⁸ الصغير بن يوسف، 1998، ج 1، ص 81-105. الصويد، 2016، ص 104.

2.1. بلاد حمامة

تمثلت بلاد حمامة موضوع دراسة سابقة⁹ اهتممنا خلالها بضبط حدودها المجالية وتتبع انتظام قراها ومعالمها حول وادي ملقى الوديان وهو ثاني روافد وادي الشعرة. وتمثل بلاد حمامة الحوض المائي الفرعي الأوسط من كامل الحوض المائي لوادي الشعرة، وهو يقدم أكبر المناطق على مستوى الامتداد الجغرافي وأكثر عدد من القرى (12 قرية¹⁰) ومن المعالم والمنشآت باختلاف أصنافها.

وتبرز بلاد حمامة على المستوى الجغرافي كمطقة تتوسط كل من بلاد القيطون وبلاد البطمة، وهي تشترك معهما في المدخل المُفضي إليها من الجهة الشمالية الغربية لجبل وسلات، كما أنها تمثل نقطة الوصل لباقي المنطقتين بينها وبين باقي الجزء الشرقي من جبل وسلات وهو ما يجعل منها منطقة مركزية في كامل الجزء الغربي من جبل وسلات لخصوصية انفتاحها بين الجبل والسهل في نفس الوقت.

3.1. بلاد البطمة

تمثل بلاد البطمة آخر المناطق المكونة للحوض المائي لوادي الشعرة من الجهة الجنوبية، تمتد حدودها الشمالية مع بلاد حمامة على طول المرتفعات الفاصلة بينهما أما حدودها الجنوبية فتكون في مستوى منحدرات واد العرارة الذي يبرز كأحد أكثر المجاري المائية عمقا وانحدارا (صورة 2)، ويكون خط تقسيم المياه حده الشرقي الذي يتركز في أعلى قممها ضريح لسيدي بوحديد. تتميز بلاد البطمة بشدة تضرس منحدراتها وبعمق أوديتها الفرعية التي تخترقها مثل "وادي القرابج" وهو ما أثر على عدد التجمعات السكانية وامتدادها مقارنة ببلاد حمامة حيث يقتصر الأمر ببلاد البطمة على أربعة قرى هي الشندوب ودار ملاح والسند والبطمة.



صورة 1. قرى بلاد القيطون من الجهة الغربية.
المصدر: صورة الكاتب.

تمتد بلدة الشندوب في أقصى الطرف الجنوبي الغربي لبلاد البطمة وتمثل حدودها الجنوبية والشرقية آخر نقاط لكامل مجال حوض وادي الشعرة ويمتد جنوبها مباشرة أحد أكثر الأودية عمقا وهو وادي العرارة والذي يقدم بدوره حوضا مائيا آخر على غرار حوض وادي الشعرة. وتمتد بلدة الشندوب فوق ذروة جبلية منبسطة لها امداد بين

⁹ الصويد، 2021.

¹⁰ تم خلال زيارات حديثة للمنطقة التفطن إلى وجود قرية أخرى لم يقع احتسابها في أعمال سابقة فيصبح العدد المُحِين للقرى هو اثنا عشرة قرية.

الصويد، 2021، ص 93.

الشمال الغربي والجنوب الشرقي ارتفاعها 720 م تحتوي على تسعة أحواش تتوزع وفق مجموعتين، وقد قُمت بمنحدراتها الشرقية والغربية تهيئة منشآت مائية في مستوى الانكسارات الصخرية أين أمكن رصد منشآت مائيتين.



صورة 2. قرى بلاد القيطون وحدودها الغربية.

المصدر: صورة الكاتب.



الصورة عدد 3. مسجد القيطون.

المصدر: صورة الكاتب.



الصورة 4. مسلك يتوسط بلاد القيطون.
المصدر: صورة الكاتب.

ويمتدّ جنوب قرية الشندوب¹¹ مسلك مهيب يتجه جنوبا ليمر بضريح "سيدي بوحديد"¹² الذي يمثل آخر نقطة لبلاد البطنة من الجنوب يتجاوز ارتفاعها 700 م مكونة مع باقي الذروات الملاصقة لها خطأ لتقسيم المياه. ويقدم هذا الضريح نموذجا للعمارة المحلية الجبلية حيث يمتد بطرف واجهته الشرقية مدخل يفضي إلى رواق جنوبي سقفه قبو طولي انهار جزء هام منه يتقدم من الجهة الجنوبية فضاء مربع الشكل بجدرانته الشمالية والشرقية والغربية أقوس جدارية (قوسين من كل واجهة) في حين يحمل قوسي الواجهة الجنوبية عمود حجري. سقف الغرفة المربعة قبة مخروطية تستند على رقبة تعلو الفضاء المربع بواسطة صدفات ركنية متدرجة، بوسط الغرفة قبر لسيدي بوحديد تبدو آثار نبش حديثة في أغلب أركانه ويبرز به إلى تابوت خشبي وضعية صيانتها سيئة.

البلدة الثانية هي دار ملّاح وهي تحتل القسم الأوسط من بلاد البطنة في مستوى منحدر يبلغ ارتفاعه 550 م تمتدّ بها خمسة أحواش متباعدة فيما بينها ووضعية صيانتها سيئة للغاية فقد كان للانحدار دور كبير في تداعي جدرانها وتدرج حجارتها نحو الأسفل (صورة 3). ويوجد غربيها في مستو ذروة ثانية أسفلها بلدة السند وهي تختلّ موقعا مشرفا ارتفاعها في حدود 530 م تمتد بها خمسة أحواش (صورة 4).

البلدة الرابعة هي بلدة البطمة وهي تحتل مركز البلاد وهي التي أعطت اسمها لكامل المنطقة، حيث يبرز بها ما لا يقل عن سبعة أحواش تمتدّ فوق ذروة ارتفاعها في حدود 520 م بطرفها الشرقي توجد مقبرة وحويطة لسيدي "بو مناد" وبالطرف الغربي تمتدّ مجموعة هامة من معاصر الزيت حيث مكّنا العمل الميداني من الوقوف على ستّ معاصر للزيت وهو أعلى عدد للمعاصر في بلدة واحدة بكامل الحوض المائي لواد الشعرة.

¹¹ قمنا بإنجاز سبر أثري في بلدة الشندوب ستُنشر نتائجه قريبا في مقال مُستقل.

¹² يمكن أن نلاحظ التقارب الصوتي بين اسم الضريح "بوحديد" وبين مصطلح الحد، فهل التسمية في علاقة بضبط حدود مجالية للمناطق بالجبل خاصة وأنه يمثل آخر نقطة من كامل هذا الحوض المائي لوادي الشعرة من الجهة الشرقية؟ مع الإشارة إلى أن الرواية الشفوية المتداولة بأسفل الجبل تُفيد بأن شهرة صاحب الضريح كانت نسبة لقطعة من حولي أهدتها له إمرة من الجبل بعد أن بشر بنزول الغيث النافع على إثر جفاف طال بجبل وولات وتحقق تنبئه.

ويوجد في أقصى الطرف الغربي وبالقرب من المسلك المفضي للبلدة ولكامل البلاد مسجد له مدخل شرقي وله امتداد طولي بين الشرق والغرب أقص طوله نجده في مستوى جدار القبلة 10,40 م ثم جداره الشرقي بحوالي 10,20 م أما الجدار الشمالي فهو لا يتجاوز 8,10 م. بمحور جدار القبلة حنية في الجدار غير ناتئة من الخارج ولا تزال أرضيته تحتفظ بجزء من طبقة من الحصى والجير كانت تغطيها.

2. التهيئة المجالية: تقسيم مجالي محلي عريق

لقد كان للمعطيات الجغرافية دور أساسي في تشكّل طوبوغرافية الحوض المائي لوادي الشعرة وفي بروز حدوده المجالية بشكل واضح، وقد كان لنفس المعطيات مساهمة أساسية في نحت المجال وفي رسم طوبوغرافية خاصة قام السكّان بتهيئتها عبر التفاعل والتأقلم مع خصوصيتها فكان تدخلهم بتهيئة المسالك والمسارب وبتقسيم الأراضي وتهيئتها.

2. 1. المسارب والمسالك

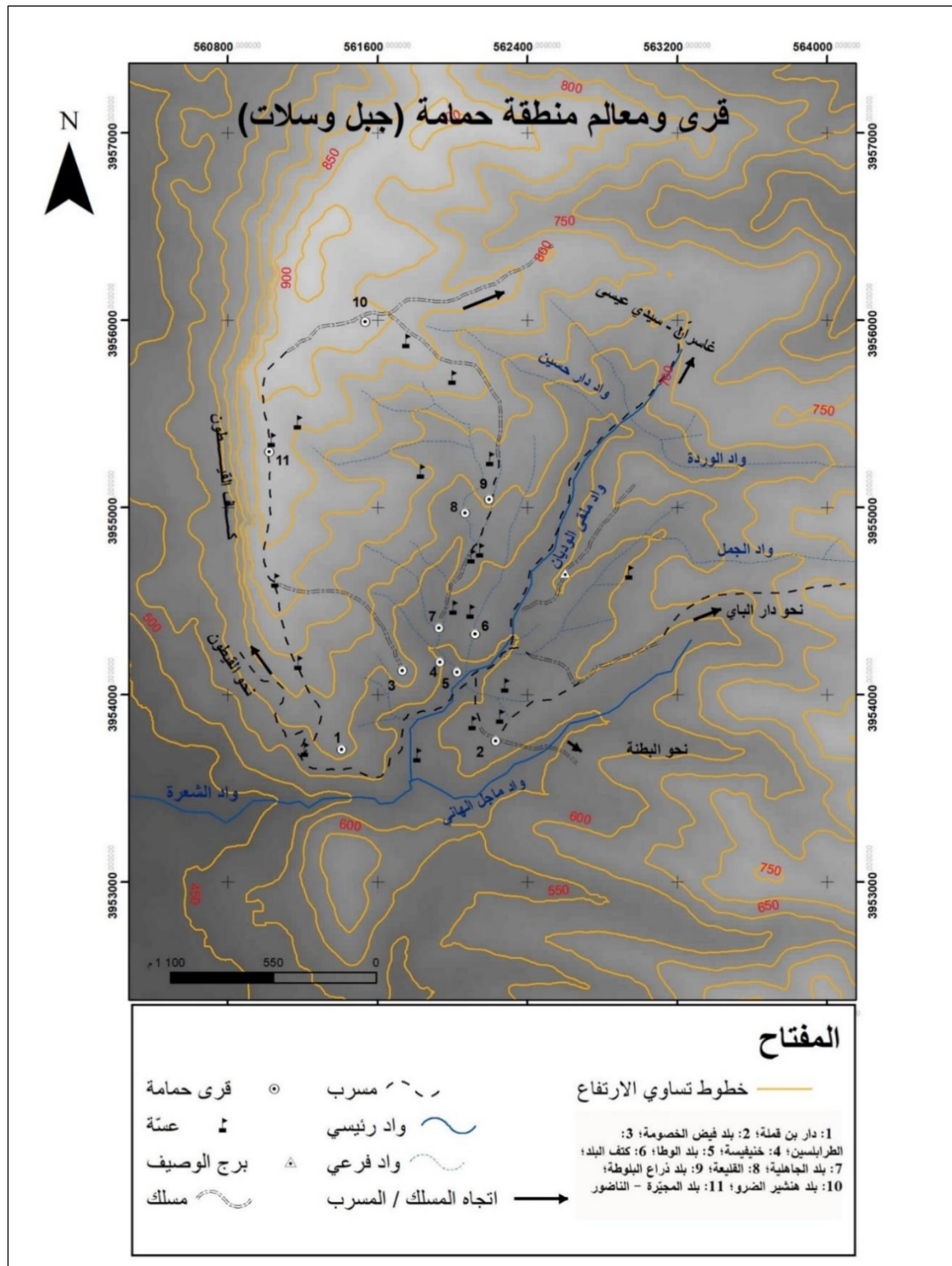
يمكن للمتمعّن في الخرائط الطوبوغرافية التي يمتدّ عليها جبل وسلات أن يلاحظ وجود شبكة كثيفة من الطرقات التي تصل بين مختلف أطراف الجبل وبين قراه وبلداته، ويزداد فهم أهمية هذه الشبكة وخصوصيتها بالمعينة الميدانية، فقد مكّنتنا أعمال المسح التي قمنا بها في منطقة الحوض المائي لوادي الشعرة من الوقوف على خصوصية هذه الشبكة وعلى طبيعتها وأصنافها وقد فصلنا في أعمال سابقة عند دراسة بلاد حمامة هذه الشبكة وفرقنا خلالها بين صنفين من الطرقات يشمل الصنف الأول "المسارب" ويشمل الصنف الثاني "المسالك"¹³، وقد لاحظنا أن هذا التقسيم يتواصل ليشمل أيضا بلاد الفيطون وبلاد البطمة فالطرقات مترابطة ومتشابكة ومُشتركة بين مختلف مناطق الحوض المائي لوادي الشعرة.

ويبرز مصطلح "المسرب" كأحد أقدم المصطلحات المُعتمدة في المصادر خلال الفترة الحديثة لتوصيف صنف من الطرقات التي يتنقل عبرها سكان الجبل عامة والتي تصل بين قرية وأخرى وبين منطقة وأخرى، فقد ذكر الصغير بن يوسف وصفا للجبل ذكر فيه "ليس بين القرية والقرية وصلة ... ترى مسربا كمسرب النمل"¹⁴.

وتمتدّ المسارب بالحوض المائي لوادي الشعرة انطلاقا من مدخل طبيعي لمجرى وادي الشعرة يُعرف "بخنقة وادي الشعرة" أين يوجد مسرب يساير حافة مجرى الوادي يتفرع عنه في مرحلة أولى من الجهة الشمالية مسرب يؤدي إلى بلاد الفيطون ثم في مرحلة ثانية يتفرع عنه في مستوى نقطة التقاء رافدي وادي الشعرة الجنوبيين نحو وجهتين، الوجهة الأولى نحو بلاد البطمة عبر حافات "وادي الهاني" والوجهة الثانية نحو بلاد حمامة عبر حافات "وادي ملقى الوديان" (أنظر الخريطة 2).

¹³ الصويد، 2021، ص 100.

¹⁴ بن يوسف، ن. م.، ج 1، ص 105.



الخريطة 3. قرى ومعالم بلاد حمامة.
المصدر: الصويد، 2021، ص 93.



صورة 5. مجال بلاد البطمة.
المصدر: صورة الكاتب.



صورة 8. سيدي بو حديد



صورة 7. مسلك الشندوب
- سيدي بو حديد



صورة 6. أحواش بالطرف الغربي للشندوب



صورة 10. بلدة السند



صورة 9. دار ملاح



صورة 11. بلدة البطمة.

المصدر: صور الكاتب.

وتمثل هذه المسارب في الأصل مناطق تنقل طبيعية غير أن بعض أجزائها تحتوي على تدخلات بشرية بسيطة عن طريق ملء بعض الانكسارات بالحجارة أو عن طريق تشييد مدرجات في نقاط الانحدار. ولا نستبعد أن تكون هذه المسارب هي نفسها التي كانت معتمدة منذ فترات ما قبل التاريخ وتواصل استعمالها إلى يومنا هذا حيث تتوزع أغلب الرسوم الصخرية الموجودة بهذا الجزء من وسلات في الأودية والمنحدرات أسفل هذه المسارب¹⁵.

أما ما اعتبرناه مسالك فإنها تشمل الطرقات التي تمتد بالأساس فوق الذروات الجبلية وهي تغطي كل مناطق الحوض المائي لوادي الشعرة وتصل بينه، وهي تتميز أساسا بوجود جدران تحدد مسارها يصل معدل ارتفاع الجدار إلى حوالي متر واحد وأحيانا يصل ارتفاعها إلى القامة في بعض النقاط. وتمتد هذه المسالك على كامل خط ذروات كاف القيطون وتتواصل منه نحو باقي مناطق جبل وسلات وهي تسير نفس خط تقسيم المياه وبالتالي فهي تمثل حدودا بين بلاد القيطون شمالا وبلاد حماسة جنوبا. ويمتد تقريبا بشكل موازي لهذا المسلك نحو الجنوب مسلك آخر يسير أيضا خط الذروات ليفصل بين بلاد حماسة وبلاد البطنة جنوبا، وبين هذين المسلكين تتفرع باقي المسالك التي تصل بين الذروات الجبلية والبلدات والقرى لمختلف المناطق.

وترتبط هذه المسالك بطبيعة النظام الاقتصادي بجبل وسلات والقائم على النشاط الزراعي بحكم أن سكان الجبل كانوا مستقرين ومشجرين¹⁶ كما كانوا يمارسون نشاط تربية الماشية التي تؤكد المصادر وجودها وأهميتها في اقتصاد سكان الجبل¹⁷ وهنا يكمن الإشكال والحل في نفس الوقت. فالمجال المحيط بالقرى داخل الجبل وداخل هذا الحوض المائي مجال مهيب بالكامل ومغروس في مجمله ونشاط الرعي كان يتم خارج الجبل بشكل يومي وجماعي لأهل المنطقة أو القرية الواحدة وقد مثلت هذه المسالك القدرة على حصر مسار المواشي ونقلها خارج الجبل من دون أي إضرار بالمناطق الزراعية وبالأشجار داخل الجبل حلا ناجعا للقطع مع أي أضرار قد تحدثها المواشي للمحاصيل (صورة 14).

¹⁵ حول أهم الرسوم الجدارية بهذا الجزء من وسلات ومختلف الشواهد المؤرخة بفترات ما قبل التاريخ أنظر:

M'timet et J. Zoughlami, 1991. J. Ben Nasr, 2001- 2002. S. Yahia-Acheche, Harbi-Riahi, A. Gragueb, A. A. 2009.

¹⁶ المكني، دون تاريخ، ص 22.

¹⁷ بن يوسف، 1998، ج 1، ص 105.



كما تمثل هذه المسالك أشكال تهيئة لمسارات مضبوطة تضمن سلاسة التنقلات على الدواب¹⁸ بسلامة المحاصيل من الخيل والبغال التي كانت حاضرة بشكل ملحوظ في نقل البضائع لدى الوصالية¹⁹ هي أيضا مسالك كانت ناجعة في التحركات بين أطراف الجبل وبين المسالك أسفل الجبل²⁰.

2.2. "العسات": معالم التأمين الداخلي والمراقبة الخارجية

يكاد ينفرد جبل وسلات عامة والحوض المائي لواد الشعرة تحديدًا بصنف من المعالم التي لا نجدها في المرتفعات الجبلية القريبة وهي المعالم المعروفة عند السكان المحيطين بالجبل بتسمية "العسات" (جمع عسة) وهي بمثابة "المراسد" المخصصة للمراقبة وتنقسم إلى ثلاثة أصناف: "عسات" المراقبة الخارجية و"عسات" المراقبة الداخلية والبرج²¹.

يتوزع الصنف الأول من "العسات" فوق أكثر الذروات الجبلية ارتفاعا بحوض واد الشعرة، وهي معالم يأخذ الواحد منها شكلا مستطيلا يصل طولها إلى 9 م وعرضها إلى بين 6 و8 م، وتتوزع أهم هذه المراسد على امتداد كامل ذروات كاف القيطون في نقاط يصل ارتفاعها إلى لأكثر من 800 م وهو ما يسمح برؤية شاملة وبمراقبة واسعة لكامل المجال أسفل الجبل في بلاد القيطون وداخله ببلاد حماسة وبلاد البطمة بالإضافة إلى إمكانية مراقبتها مداخل الجبل من الجهة الغربية.

وتتوزع على امتداد كاف القيطون ثلاث مراسد تتباعد فيما بينها مسافة 500 م وهي ملاصقة للمسلك الجبلي الذي يمتد على كامل كاف القيطون مما يسمح لها بمراقبة التنقلات والتحركات عبر هذا المسلك²² وتمتد مجموعة من "العسات" في بلاد البطمة فوق أعلى نقاط الذروات وهي تمثل حدودا للبلاد (الخريطة 3) كما توجد مجموعة أخرى تتوزع في المرتفعات المحيطة "بخنقة وادي الشعرة" (الصورة 15 و16).

¹⁸ تحدّث Despois عن تنقله بالخيول عبر هذه المسالك، كما لا يزال سكان أسفل الجبل ينتقلون نحو الجبل باعتماد نفس هذه الدواب، أنظر: J. Despois, 1959, p. 415.

¹⁹ يتحدّث الصغير بن يوسف عن الأحمرّة والبغال والتي كانت تخصص للنقل وحمل البضائع، أنظر: بن يوسف، 1998، ج 1، ص 105، ج 4، ص 188.

²⁰ لا نستبعد من خلال سياق إشارة لدى الصغير بن يوسف بأن يكون يونس بن إسماعيل حفيد علي باشا قد فر من جبل وسلات ومن مقر إقامته بدار الباي نحو الجزائر عبر هذه المسالك التي تمر بالحوض المائي لواد الشعرة، أنظر: بن يوسف، 1998، ج 4، ص 188 - 189.

²¹ لم نقف على هذا الصنف من المعالم في المرتفعات الواقعة في القسم الأوسط من الظهيرية مثل برقو والسرّج وكسرى والتي لا تبعد عن جبل وسلات كثيرا، أنظر للمقارنة: الصويدي، 2011، الصويدي، 2013، الصويدي، 2015.

²² الصويدي، 2021، ص 103.



صورة 13. المسلك بين بلاد حمامة وبلاد القيطون



صورة 12. مسلك بين بلاد القيطون وبلاد حمامة



صورة 14. مسلك بين بلاد حمامة وبلاد البطمة لا يزال مستعملا من قبل الرعاة.
المصدر: صور الكاتب.

ويشمل الصنف الثاني "العسات" التي تتوزع داخل المستغلات الزراعية أو في أطرافها وقرب المنشآت المائية، وهي تمتد في كل من بلاد القيطون وفي بلاد البطمة وتكون كثافتها أكبر في بلاد حمامة. وتأخذ "العسة" الواحدة شكلا مستطيلا لا يتجاوز 5 م وعرضها يكون محدود لا يتجاوز 1,8 م وتتميز بوجود فتحات مراقبة يسمح برؤية شاملة للمستغلات الزراعية حسب ما عايناه في بعض "العسات" التي لا تزال قائمة الجدران.

أما الصنف الثالث فيشمل "البرج" وهو معلم محصن يُعرف بتسمية "برج الوصيف" يمتد في القسم الأوسط من الكامل المجال المدروس ويحتل نقطة مرتفعة تصل إلى 550 م تتركز حوله شبكة المسالك والمسارب، يأخذ شكلا يميل إلى الاستطالة أقصى طوله حوالي 20 م وعرضه حوالي 19 م وتمتد داخله مجموعة من الغرف ذات الامتداد الطولي. ولا نستبعد أن يكون هذا البرج هو واحد من الأبراج التي كانت تضم ممثلي السلطة المركزية داخل كل خمس من أخماس الجبل الذي كان منقسما إلى خمسة أخماس²³ ومقرا من مقرات "قايد الخمس" وعسكر زواوة الذين كانوا تحت إمرته حسبما تذكر وثائق الأرشيف خلال القرن 18 م²⁴.

وتمثل مجمل هذه "العسات" معالم ارتبطت أساسا بمراقبة وتأمين سلامة المصدر الأساسي لحياة الوساتية من زراعات وغراسات سواء من التجاوزات الداخلية لسكان المناطق والقرى فيما بينهم أو من تعديات الأعداء من الخارج.

3.2. التقسيم الزراعي: القدرة على التأقلم مع قلة الموارد

بيّنت الدراسات الجغرافية التي اهتمت بجبل وسلات خلال خمسينيات القرن الماضي ضخامة المجهود المبذول لتهيئة المساطب les terrasses في المنحدرات الجبلية وانبهرت بحجم وامتداد هذه المساطب التي تكاد تشمل كل منحدرات الجبل²⁵.

والمسطبة على مستوى التعريف هي تهيئة لجدران في المنحدرات والأودية بغاية توفير مساحات زراعية إضافية في مجال جبلي صخري بالأساس وبغاية حماية طبقة تربة قليلة السمك من الانجراف والاستفادة بأكثر نسبة ممكنة من مياه الأمطار. وتمتد هذه الجدران بحسب شكل المنحدر وحدته وبحسب الانكسارات التي تخترقه حيث يلتوي جدار المسطبة الواحدة المتعادم مع المنحدر ويقل امتداده كلما كانت المساحة التي يؤطرها محدودة (قد تشمل مساحة غراسية شجرة فحسب) ويمتد الجدار بشكل مستقيم ومتعادم مع المنحدر وعلى مساحة طويلة كلما كان المنحدر لطيفا وقليل الانكسارات وهو ما يسمح بتوفير مسطبة ممتدة وشاسعة.

وتقدّم مثل هذا التهيئة مشهدا زراعييا يجعل من المنحدرات الصخرية حادّة كانت أم لطيفة تبرز على شاكلة مدرجات متتالية يقل عددها ويرتفع بحسب امتداد المنحدر، وقد اعتبرت بعض الدراسات أن المساطب بجبل وسلات تتشابه على مستوى التقنية العامة مع "السدود" بجبال الجنوب التونسي وجبل نفوسة²⁶ وهي تتشابه أيضا مع تقنية "الدكاكن" في جبل برقو²⁷.

وقد مكّنا العمل الميداني من الوقوف على هذه الاختلافات في شكل المساطب بالحوض المائي لواد الشعرة بين مختلف مناطقها. حيث تتميز بلاد القيطون الممتدة مجالاتها الزراعية في منحدرات كاف القيطون والتلال المتقدمة للجبل المشرفة على السهول الغربية للجبل، تتميز مساطبها بامتدادها العرضي وبوضوح واستقامة جدرانها خاصة في جزئها الممتد نحو الغرب (الصور 5 و6) (المساطب على منحدر كاف القيطون ومنحدرات

²³ بن يوسف، 1998، ج 1، ص 105، المكني، ص 32.

²⁴ الأرشيف الوطني التونسي (مستقبلا أ. و. ت.)، الدفتر عدد 15، أ. و. ت.، الدفتر عدد 26، الصويد، 2021، ص 104.

²⁵ J. Despois, 1959, p. 412.

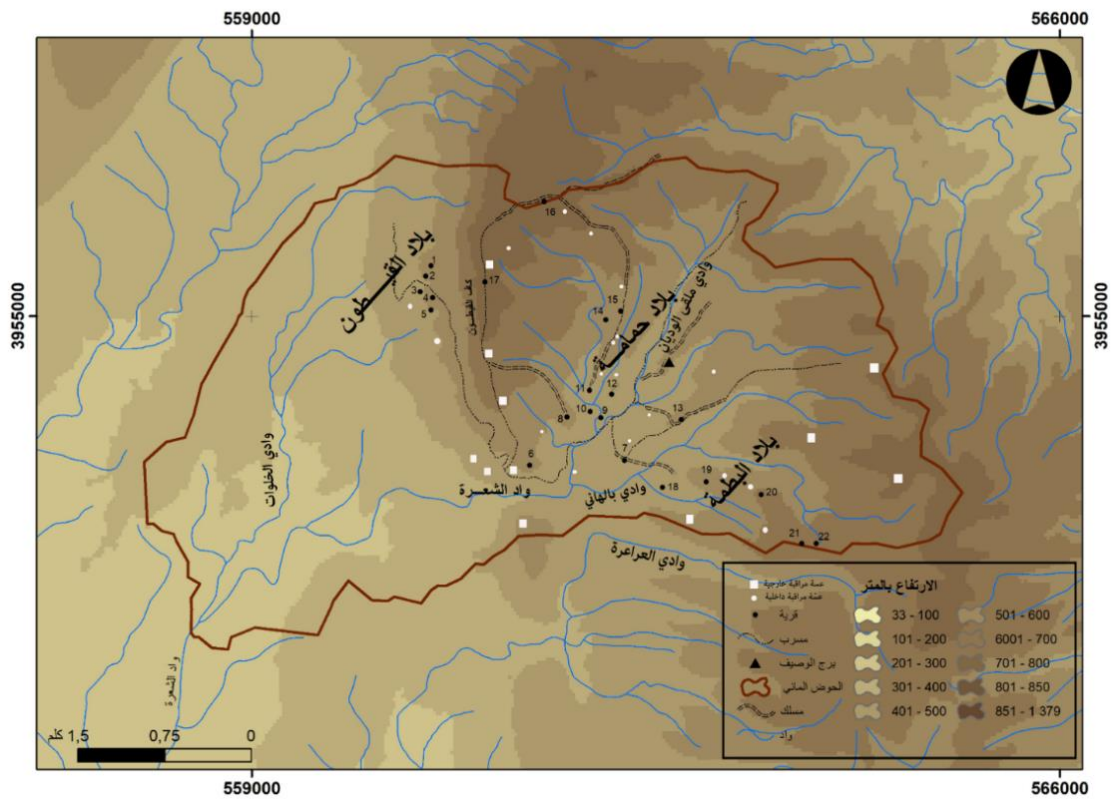
²⁶ J. Despois, 1959, p. 412.

²⁷ "الدكاكن" هي المصطلح المحلي المعتمد في جبل برقو لتوصيف كلمة المساطب، الصويد، 2011، ج 2، ص 260.

التلال الغربية). وقد وفر هذا الاتساع إمكانيات زراعية هامة جعلت من النشاط الزراعي يراوح بين الغراسات (أشجار الزيتون بالأساس) وزراعات الحبوب.

وتبرز في المقابل المساطب ببلاد حمامة أقل اتساعا وامتدادا لضيق الأحواض وتضرس المنحدرات لكنها تقم نماذج لصنفي المساطب الشاسعة والممتدة في مستوى المنحدرات من الجهة الجنوبية وتقدم أيضا مساطب ضيقة وصغيرة في مستوى منحدرات الأودية العميقة مثل وادي القليعة (الصور 21)..

أما بلاد البطمة فتبدو أكثر المناطق تضرسا حيث تتالي فيها الأودية العميقة وتتضاعف حدة انحدار منحدراتها خاصة في مستوى وادي القرايج أين تمتد المساطب على شاكلة جيوب صغيرة تتالي من أعلى المنحدرات إلى أسفلها مسaire الطبقات الكلسية الصلبة وأشكالها. وقد أثر حجم المساطب المحدود على طبيعة النشاط الزراعي ببلاد البطنة فهي مساطب تضم أشجار الزيتون التي تبدو أكثر غراسة لاتزال قائمة وتقل بها المساحات المخصصة للحبوب.



خريطة 4. توزع مختلف أصناف "العسات" داخل الحوض المائي لوادي الشعرة.
المصدر: رسم الكاتب.



صورة 15 و16. "عسات" حول خنقة وادي الشعرة.



صورة 17. برج الوصيف.
المصدر: صور الكاتب.



صورة 19. مساطب غربي بلاد القيطون.



صورة 18. مساطب منحدر كاف القيطون.



صورة 21. مساطب القليعة ببلاد حمامة (صور الكاتب)



صورة 20. مساطب وسط بلاد حمامة



صورة 23. منشآت مائية منقورة في منحدرات صخرية ببلاد حمالة



صورة 22. نهضة منشأة مائية في منكسر صخري ببلاد القيطون



صورة 24. سد حجري على وادي الجاهلية ببلاد حمالة.
المصدر: صور الكاتب.



صورة 26. تقنية التسقيف بالألواح الحجرية.



صورة 25. استعمال أجزاء من معصرة في تشييد جدار.



صورة 28. الصدفية ورقبة القبة من الداخل.



صورة 27. قبة سيدي بوحديد.



صورة 29. أقواس غرفة الضريح.

(صور الكاتب)

وتتجمع هذه المساطب المتتالية والمتجاورة في المنحدرات بمختلف المناطق داخل مساحات مضبوطة تُحددها جدران متوازية مع المنحدر وتنطلق من أعلى المنحدرات إلى أسفلها وهي مساحات كانت مصادر الفترة الوسيطة تسميها "بالمقاسم"²⁸، فهي ملكيات فلاحية وتقسيمات محلية بالجبل يكون امتداد الملكية الواحدة من أعلى المنحدر إلى أسفلها وتكون باقي المقاسم موازية لها وهي بذلك تمثل حلاً مجالياً يمكن كل المقاسم من الحصول على نفس كميات مياه سيلان مياه الأمطار عند انسيابها من أعالي المنحدرات ويبرز هذا التقسيم بشكل واضح في بلاد القيطون، ويكون لشبكة المسارب والمسالك مساهمة كبيرة في الفصل بين هذه المقاسم وأيضاً في الولوج إليها.

²⁸ ابن عذوم، 2006، ج 6، ص 134؛ الصويد، 2021، ص 106.

وتتوزع في أطراف هذه المقاسم وفي المنحدرات الصخرية وفي مجاري الأودية منشآت مائية كثيفة بعضها منقور في الصخور وبعضها مشيد ومهيأ في الانكسارات الصخرية وبعضها الآخر طبيعي شكّله مياه سيلان الأودية في الصخور الكلسية مثل "القلعة الباردة" في وسط واد ملقى الوديان، وكل هذه الأصناف الثلاثة أشكال نجدها متواترة في كل جبل وولات²⁹ وتكون قريبة من المسالك والمسارب.

وقد كان للجغرافيا مرة أخرى دور في تحديد مواضع وأصناف هذه المنشآت بين بلاد وأخرى، فبلاد القيطون التي تقل فيها المنحدرات الصخرية الهامة تركّزت منشآتها المائية حول القرى في مستوى انكسارات صخرية يقع تهيئتها وإضافة أسقف مشيدة لها وملاط عازل في داخلها. وفي المقابل مثّلت بلاد حمامة منطقة سيطرت عليها المنشآت المائية المنقورة في الصخور الكلسية وهي تمتد في المنحدرات الصخرية الصلبة، ونفس هذا الصنف يتواتر ببلاد البطمة لكن كثافته تكون أقل بكثير مما نجده في بلاد حمامة.

ولئن كانت هذه المنشآت المائية المعروفة بتسمية المواجهل مخصصة بالأساس للشرب لا للزراعة فإن معالم أخرى أمكن رصدها بوسط الأودية وتحديدًا في بلاد حمامة في وسط أحد روافد وادي ملقى الوديان تُحيل إلى هذه التهيئة المائية المرتبطة بالزراعة، حيث يوجد سدّ حجري هو بمثابة الجلاميد الصخرية المنحوتة والمثبتة في أرضية الصخرية بوسط الوادي وهي النموذج الوحيد القائم إلى حدّ الآن والذي أمكن معانيته بكامل الجبل، ولا نستبعد وجود آثار لهذه التقنية في السدود في باقي الأودية بجبل وولات.

3. الخصائص المعمارية بالجبل: موارد طبيعية وسواعد محلية

يقدّم مجال الحوض المائي لواد الشعرة نموذجًا لمجال جبلي استطاع سكّانه التأقلم مع الخصوصيات الجغرافية والمناخية التي تميّزه، حيث كانت العمارة المشيدة به عمارة محلية بها نماذج لأصناف معمارية جبلية تكاد لا تتكرر في مجالات جبلية بعيدة وبعضها يكاد يكون تقليدًا في كل المرتفعات القريبة على مستوى تقنيات البناء ومواده وعلى مستوى الانتظام الداخلي.

3.1. حوض وادي الشعرة كنموذج لدراسة جبل وولات

لم تتناول الدراسات التاريخية والأثرية حول جبل وولات إلى حدّ الآن قضية الانتظام المجالي الداخلي للقرى والمعالم بالجبل ولا تزال معارفنا حول التقسيمات المجالية وانتظامها داخله محدودة، وحيث أنّ دراسة كلّ جبل وولات تحتاج إلى مجهودات كبيرة ومُشتركة من قبل الباحثين المهتمين بالتعمير بالمرتفعات الجبلية فإنّ الاهتمام بجزء أو قسم من هذا الجبل يمكن أن يكون منطلقًا ونموذجًا نستطيع من خلاله فهم باقي الجبل.

وتقدّم قرى الحوض المائي لوادي الشعرة خصائص مجالية على مستوى الانتظام الداخلي لبعض المعالم تشترك فيها مع مجالات جبلية قريبة من جبل وولات على غرار المعالم الدينية، حيث تتوزع بهذا الحوض المائي خمسة مساجد، مسجد واحد بدار الزيت (بلاد القيطون) وثلاثة مساجد ببلاد حمامة ومسجد ببلاد البطمة.

وتتشترك هذه المساجد في خاصية موضعها الطرفي من النسيج السكاني وفي موقعها المُشرف والأكثر بروزًا من باقي المعالم مع وجوده في الغالب بالقرب من المسلك المؤدّي إلى القرية. ويبدو أن هذه الخاصية الطرفية للمساجد هي من بين الظواهر التي نجدها تتكرر في المساجد بالقرى الجبلية بولات³⁰ ولكن أيضًا بالمرتفعات الجبلية القريبة منه مثل برقو والسرج وكسرى³¹.

²⁹ S. Bergaoui et A. M. Gammar, 1992, p. 203.

³⁰ الصويد، 2016، ص 101.

³¹ الصويد، 2011، ج 2، ص 30.

كما أن المعالم الاقتصادية بهذا المجال لها خصائص مشتركة في مستوى موضعها فمعاصر الزيت المنتشرة في القرى لها أيضا موضع طرفي من النسيج السكاني بل هي في الغالب آخر المعالم وأكثرها طرفية في القرية، وهذه الظاهرة تتكرر في بلاد القيطنون بمعصرة دار الزيت وفي بلاد حمامة بالبلد والقليلة ونجدها أيضا في بلد البطمة التي تحتوي وحدها على ستّ معاصر كلّها طرفية. وعلى غرار المعالم الدينية والمساجد تحديدا فإنّ موضع المعاصر الطرفي هو أيضا ظاهرة مشتركة في قرى وسلات وفي قرى المرتفعات الجبلية بالقسم الأوسط من الظهيرية.

ويحتوي هذا المجال الجغرافي الجبلي على صنف آخر من المعالم الدينية تتمثل في المعالم الولائية وهي في مجملها أضرحة مازالت تُحظى بطقوس الاعتراف لدى سكان أسفل الجبل³² نجدها تتكرر في كل بلاد بقطع النظر عن موقعها، فلكل بلاد ضريحها أو بالأحرى لكل بلاد حاميتها.

ويصعب تحديد طبيعة العلاقات التي تربط أصحاب الأضرحة بأصحاب الأرض بكل بلاد إن كانت علاقات دموية (جدّ مؤسس) أم هي اعتقاد بكرامات، نظرا لوضعية التشييت التي طالت سكان الجبل منذ 1762 م فالروايات المرتبطة بأصحاب هذه الأضرحة وعلاقاتهم بالسكان تبقى قليلة ونادرة فقد ضاع رصيد الذاكرة المحلية وتشتت مع شتات أهل وسلات.

ويتزامن وجود هذه الأضرحة مع وجود مقابر لكل بلاد، ففي بلاد القيطنون تمتدّ المقبرة في سيدي علي البكوش وتمتدّ مقبرة قرى بلاد حمامة قرب ضريح سيدي غريب في حين تمتدّ مقبرة قرى بلاد البطمة قرب سيدي بوحديد. وقد بينت الدراسات في مجالات أخرى من الجبل أن هذه المقابر تكون خاصة بعدة قرى لا بقرية واحدة³³، مما يفيد بأن ظاهرة المقابر الواحدة تكون للبلاد الواحدة هي ظاهرة خاصة بكامل جبل وسلات.

3. 2. العمارة الجبلية: حجارة جبلية وسواعد محلية

تبرز بمجال الحوض المائي لوادي الشعرة شواهد للتوطن منذ فترات ما قبل التاريخ من خلال الرسوم الجدارية على بعض المنحدرات الصخرية، كما تبرز به شواهد لمقاطع حجارة ومعاصر للزيتون منذ الفترة القديمة تمت الاستفادة من شواهدها ومن بعض أدواتها في الفترات الوسيطة والحديثة.

وتبدو المنشآت المائية المنتشرة بالجبل حاليا بأشكالها المستطيلة والدائرية ذات أصول قديمة حيث مثلت دائرية الشكل منها مقاطع لاستخراج "أحواض الطحن" plateau de brouillage في حين ان المستطيلة كانت مقاطع لاستخراج وصقل "المثقال" contrepoids وأيضا لنحت "سواري العصر المتوأمة" les Jumelles المنتشرة في كامل المجال. وقد مثل وجود كتابة لاتينية بأحد هذه المواجل حجة إضافية تدعم القول بأن المنشآت المائية المنقورة من إنجازات سواعد القاطنين بالمجال خلال الفترة القديمة³⁴.

³² تطرح نشأة هذه الأضرحة ملفاً مهماً في تاريخ المرتفعات الجبلية وهو ملف تسرب ونفاذ التصوّف الإفريقي إلى جبل وسلات ومساهمة حركة التصوف في نشر المالكية عبر توطّن أولياء وصلحاء بالمرتفعات الجبلية منذ الفترة الحفصية حيث أشارت بعض الدراسات حول وسلات إلى "أن الجبل كان على علاقة ما بمذهب الخوارج" وأن الظاهرة الولائية ساهمت في نشر وتسرب الفكر السني المالكي منذ الفترة الحفصية. وقد أصبح التصوّف زمن الحفصيين حسب دراسات أخرى "عنصراً أساسياً في توازن العلاقة بين السلطة والمجتمع" حيث دخلت السلطة "في تحالف موضوعي مع شيوخ الزوايا" وهو ما مكّنهم من بسط سيطرتهم المجالية ونشر المذهب المالكي والقطع مع المذهب الإباضي في مناطق نفوذه التاريخي مثل الجريد بمكونيه الأساسيين قسطنطينة ونفزاوة التي كان لحركة التصوف مساهمة حاسمة في هذا التحول المذهبي، أنظر: المرابط، 2009، ص 142-143 و 155. ابن الصباغ، 2012، ص 19. المسراقي القيرواني، 2009، ص 15. الغماري، 2021، ص 15-16. حسن، 1999، ج 1، ص 120.

³³ المرابط، 2009، ص 151.

³⁴ الصويد، 2021، ص 105.

وقد كانت الاستفادة من الإرث القديم أيضا في عمارة قرى بهذا المجال في مستوى إعادة استعمال الأرحية في معاصر الزيت بالبلدات، حيث تمثل كل الأرحية الموجودة في مجال واد الشعرة عناصر معمارية للمعاصر القديمة من دون استثناء. كما مثلت بعض الأدوات المخصصة للعصر عناصر تمت إعادة استعمالها في بناء الجدران (الصورة 7).

وتبرز بهذا المجال خاصية محلية لم نجد لها مثيلا في المرتفعات الجبلية القريبة وتتمثل في تقنية تسقيف فريدة من نوعها إلى حد الآن لا نستبعد أنها من التقنيات الأصلية بالجبل منذ فترات قديمة. وتقوم هذه التقنية على استعمال الألواح الحجرية التي يتراوح طولها بين 1,50 و 2 م وعرضها بين نصف المتر والمتر الواحد مع سمك يتراوح بين 10 سم و 20 سم، أستخدمت في سقوف بعض المعالم السكنية القائمة وخاصة في مراصد الحراسة بشكل كثيف وفي "برج الوصيف"، وهي تقنية استفادت من ضعف عرض المنشآت الذي لا يتجاوز 2 م واستفادت من أكثر مواد البناء وفرة في جبل وسلات وهي الطبقات الصخرية الصلبة والسميكة التي تكون وتميز كتلة جبل وسلات وهي تقنية راعت ندرة مواد البناء الخشبية بالجبل (الصورة عدد 8).

أما على مستوى تقنيات بناء الجدران فإن سكان الجبل شيدوا باعتماد حجارة محلية أحجامها تختلف من الصغيرة إلى الكبيرة وتبائن أشكالها ويدمج فيها المبني أحيانا مع الكتل الصخرية الطبيعية، ويكون ترصيف الحجارة أحيانا على قاعدة صخرية وفي أحيان أخرى صف المداميك الأول للجدران يكون أكثر عرضا من باقي الجدار مما يعطي صلابة للمعلم. وأهم ما يمكن ملاحظته في تنضيد صفوف الحجارة (مداميك) بالجدران هو استعمال شظايا حجرية صغيرة مثبتة بين كل حجرة وأخرى لضمان تباث وترافف صف الحجارة الواحدة فبإزالة هذا الجزء الصغير يصبح الجدار أكثر عرضة للانهار.

وتتميز جدران المعالم بكل القرى بمجال واد الشعرة بوجود ملاط داخلي من التربة والحصى وشظايا الحجارة وذلك خلافا لما ساد الاعتقاد به حيث كانت الفكرة السائدة لدى الباحثين بأن الجدران بقرى جبل وسلات مشيدة عبر تنضيد الحجارة فحسب ومن دون اعتماد لا ملاط داخلي ولا خارجي³⁵ وتعرف هذه التقنية في كامل البلاد التونسية إلى اليوم بتقنية "الصياح".

وقد مكنتنا المعاينة الميدانية بهذا الجزء من جبل وسلات من الوقوف على شواهد لاعتماد الملاط بكل القرى المنتشرة بمجال واد الشعرة، بل إنه وقعت معاينة شواهد لاستعمال ملاط خارجي للجدران لا يزال بارزا في بعض أجزاء من جدران المنشآت الدينية وكذلك السكنية والاختلاف الوحيد نجده في مستوى مكونات هذا الجير فهو جير أكثر نقاء وذو بياض ناصع في المساجد (مسجد حمامة ومسجد البطمة) قد يكون في علاقة بوجود نسبة مرتفعة من الجبس به، أما الأكثر تداولاً فهو الجير الذي يشوب لونه صفرة أو يغلب عليه اللون الرمادي لوجود نسبة هامة به من الرماد، وأحيانا تشمل التهيئة حتى قاعات المعالم فقد تم العثور على طبقة من الملاط الجيري تعلو قاع مسجد قرية البطمة.

ويحتوي المجال على نموذج من الأضرحة لا يزال قائما بشكل كامل وهو **ضريح سيدي بوحديد** الموجود في آخر نقطة من مجال بلاد البطمة، حيث لا تزال تعلوه قبة مخروطية الشكل شيدت بالحجارة الصغيرة بشكل متقن وهي تستند على رقبة صغيرة تمثل أركانها نقاط انتقال بين الشكل المربع لغرفة الضريح وبين رقبة القبة وهي تأخذ شكلا ربع كروي مدرج. وتبرز الأقواس الجدارية بالفضاء المربع لغرفة الضريح كأقواس بسيطة لكنها مشيدة بشكل متوازن رغم ما يشوب شكلها من انحناءات في بعض المواضع، وتقدم جدرانها المشيدة بالحجارة المصقولة نموذجا جيدا للعمارة المحلية البسيطة خاصة في مستوى واجهتها الشرقية الرئيسية أين يمتد مدخل

³⁵ J. Despois, p. 415.

الضريح والذي لا يزال ساكفه العلوي قائما وهو يشبه على مستوى التقنية مدخل ساكف ضريح سيدي غريب ببلاد حمامة.

ويبرز بضريح "سيدي بو حديد" اعتماد الملاط الخارجي الجيري بشكل واضح في كامل المعلم بالإضافة إلى استعمال بعض الأجزاء من أعمدة مواقع أثرية قديمة، كما يحتوي هذا الضريح على شواهد من اعتماد الأخشاب ودمجها في الجدران لمزيد تدعيمها، وهذا النموذج من اعتماد هذه التقنية في مجالات أخرى قريبة لم نُسجلها إلا في هذا المعلم فحسب من كامل مجال حوض وادي الشعرة.

3. الحوض المائي لواد الشعرة وقضايا التاريخ

لقد كان لقرب جبل وسلات من مدينة القيروان الأثر البالغ في تحديد موضعه من شبكة الطرقات العامة فالجبل لم يكن جبل معزولا ونائيا بل مثل مرتفعا جبليا قريبا من مسالك وطرقات تمر بالقيروان وتتفرع منها نحو إفريقية وكامل بلاد المغرب.

وقد كانت بعض المسالك قريبة جدا من أطراف الجبل منذ الفترة الوسيطة المبكرة، فطريق الجبال الذي تذكره المصادر بين القيروان والحضنة عبر الأربس كانت محطته الأولى مدينة "جلولاء"³⁶ التي تتطابق مع الموقع الأثري عين جلولة وهي موقع ملاصق للجبل من الجهة الجنوبية الشرقية. أما المحطة الثانية من هذا الطريق فهي "أجر"³⁷ وهي قرية قريبة جدا من جبل وسلات من جهته الشمالية الشرقية.

أما الطريق الثاني فهو طريق القيروان - سبيبة والذي كان يمر من الجهة الغربية لجبل وسلات وقد مثل في جزئه الأول طريقا كان مستعملا خلال الفترة الحديثة للتنقل من القيروان إلى الجبل عبر "فج سبيبة"³⁸.

وقد كان لهذا القرب تأثير على الجبل وعلى انفتاحه على العواصم والمدن والقرى القريبة، وهو ما سمح بوجود نشاط وتبادل تجاري نجد صده في اللقى الخزفية بالقرى الجبلية، وتمثل هذه اللقى المعطى الأثري الوحيد إلى حد الآن القادر على تقديم مؤشرات عامة لتأريخ التوطن بهذه القرى وفهم التطور العام لها.

وقد مكّنتنا العمل الميداني بالمجال المدروس من الوقوف على خزف مؤرخ بالقرن 6 هـ / 12 م يعود للفترة الموحدية - الحفصية ويتواصل إلى الفترة الحديثة بكل من بلاد القيطون وبلاد حمامة³⁹ وكذلك بلاد البطمّة، ويبقى هذا التأريخ نسبي بحكم أن العينات من الخزف قد تم تجميعها من سطح الأرض في انتظار انجاز أسبار أثرية قادرة على تحديد تواريخ للتوطن بأكثر دقة. لكن هل من إشارات تاريخية في المصادر التاريخية حول هذا المجال بجبل وسلات؟

ليست لدينا إشارات مصدرية صريحة حول الحوض المائي لوادي الشعرة ولا لمختلف الأقسام المكوّنة له خلال الفترة الوسيطة، ولكن في المقابل فإن أقدم إشارة مصدرية ذكرت مجالات ومناطق جبل وسلات تتطابق زمنيا مع المعطيات الأثرية ومع التواريخ التي تقدّمها اللقى الخزفية بهذا الجزء من الجبل، حيث أفاد الإدريسي خلال القرن 6 هـ / 12 م بأن جبل وسلات "... فيه من الحصون حصن الجوزات وحصن تيفاف وحصن القيطنة ودار إسماعيل ودار الدواب"⁴⁰.

³⁶ البكري، 1992، ج 2، ص 716. عرعار، 1999، ص 23. الفهري، 2000، ص 56.

³⁷ يوجد الموقع الأثري "أجر" بسيدي عمارة حاليا شمال الوسلاتية على بعد حوالي 5 كلم.

³⁸ البكري، 1992، ج 2، ص 710. الباهي، 2013، ص 23-41، ص 33.

³⁹ الصويد، 2021، ص 100.

⁴⁰ الإدريسي، 2007، ص 88.

ويبدو أن مصطلح "الحصون" الذي أورده الإدريسي يُفيد مختلف التقسيمات المجالية بجبل وولات، بمعنى أن الجبل كان ينقسم منذ تاريخ وصفه خلال القرن 6 هـ / 12 م إلى خمسة مجالات، وهو تقسيم تراي وجغرافي (وقد يكون جباي أيضا) على غرار نظام الحصون بالأندلس⁴¹، ولا نستبعد أن يكون هذا التقسيم الخماسي للجبل قد تواصل خلال الفترة الحديثة بتسميات مختلفة. فقد استعمل الصغير بن يوسف خلال القرن 18 م في وصف الجبل مصطلح "القبائل" وأورد قائلا عن الجبل وسكانه "وهم خمس قبائل أوساطهم (كذا) أولاد مانس والجبل وأهل تيفاف وأهل بورحال وأكثرهم أولاد إسماعيل"⁴² وفي المقابل فإن وثائق الأرشيف كانت تستعمل عبارة "الخمس" و"أخماس الجبل"⁴³، و"الخمس" بهذا المعنى هو الوحدة المجالية المستعملة بالجبل خلال الفترة الحديثة للتفريق بين مختلف المناطق في الوثائق الرسمية وعند السكان المحيطين بالجبل وهو على الأرجح تقسيم وريث تقسيم مجالي عريق بالجبل⁴⁴.

وتقدم الفترة الحديثة صنفا آخر من المصادر هي الوثائق الأرشيفية التي تتضمن إشارات أكثر دقة حول المجال الجبلي تم تدوينها في علاقة بالجباية فقدّمت تسميات للعائلات وللقرى الجبلية بولات بشكل عرضي، وقد كان لبعض الدراسات التاريخية السبق في الاعتماد على هذا الصنف من الوثائق الأرشيفية لكتابة تاريخ هذه المجموعات السكانية القاطنة بالمرتفعات الجبلية لولات تمكنت من خلالها من فعم الانتماءات العائلية للوساتية⁴⁵.

وقد مكنتنا الوثائق الأرشيفية من الوقوف على تسميات المناطق الثلاثة المكونة للحوض المائي لوادي الشعرة خلال القرن 18 م، حيث كانت "بلاد حمامة" أقدم المناطق المذكورة في الوثائق الأرشيفية التي أمكن الاطلاع عليها وتعود أولى الإشارات إليها في تاريخ سنة 1743 م وردت في إحدى "الخطايا" الموظفة على أحد سكانها بالعبارة التالية "قبل ولد مبارك بن سلامة من أولاد حمامة دية.... أخبر عنه القايد أحمد بن محمد قايد وولات أواخر ربيع الثاني 1156 (جوان 1743)..."⁴⁶.

ونجد أن بعض الوثائق الأرشيفية تتحدث في سنة 1762 عن المجموعات التي غادرت جبل وولات فيتواتر في بعض القوائم الاسمية ذكر السكان القاطنين بالحوض المائي لوادي الشعرة والمناطق الثلاثة المكونة لها بشكل متتالي وهو ما يدعم ملاحظاتنا الميدانية من انتماء هذه المناطق إلى نفس المجال وتحركاتهم ومواقفهم وحتى هروبهم كان في مجموعات تؤكد وحدة انتمائهم الجغرافي، "فأولاد حمامة" غادروا مع جيرانهم من أهل القيطون ومع أهل البطة والشندوب خلال هروبهم من الجبل⁴⁷.

وتؤكد مجمل الإشارات الأرشيفية لتسميات مختلف مناطق الحوض المائي لوادي الشعرة -بالإضافة إلى وحدة الانتماء الجغرافي- تؤكد وحدة الانتماء "القبلي" لساكنتي هذا الحوض بأقسامه الثلاثة. فلقب "القيطوني" (نسبة

⁴¹ P. Cressier, 1984.

حسن، 2004، ص 31.

⁴² الصغير بن يوسف، 1998، ج 1، ص 105.

⁴³ أ. و. ت.، الدفتر عدد 16. المكني، ص 85 - 86.

⁴⁴ هناك تسميات ذكرها الإدريسي لأقسام الجبل تواصلت خلال الفترة الحديثة، "فحصن تيفاف" عند الإدريسي أصبح عند الصغير بن يوسف "أهل تيفاف" و"حصن إسماعيل" أصبح عنده "أولاد إسماعيل"، كما يمكن أن نلاحظ وجود هذا التقارب في الرسم بين عبارة "حصن القيطنة" المذكورة من قبل الإدريسي وبين بلاد القيطون، فهل كانت تسمية القيطون وريثة لتسمية القيطنة؟

⁴⁵ يمثل العمل الذي أنجزه الأستاذ عبد الواحد المكني أولى الدراسات التاريخية التي أعادت كتابة تاريخ سكان الجبل من الوساتية بالاعتماد أساسا على الوثائق الأرشيفية بمختلف أصنافها.

⁴⁶ الأرشيف الوطني التونسي، الدفتر عدد 34.

⁴⁷ أ. و. ت.، الدفتر عدد 120، وقد خصصنا في أطروحة الدكتوراه عنصرا للوساتية الذين غادروا الجبل قبل قرار الإخلاء النهائي لجبل وولات وآخر للوساتية المغادرين للجبل بعد قرار الإخلاء، أنظر: الصويد، 2011، ج 2، ص 166 - 172.



إلى بلاد القيطون) أكدت دراسات تاريخية انتمائه إلى خمس أولاد إسماعيل⁴⁸ مما يعني أن "بلاد القيطون" و"بلاد حمامة" و"بلاد البطممة" تمثل كلها مجالا جغرافيا كانت تقطنه مجموعات من أولاد إسماعيل أكبر أخماس جبل وولات خلال القرن 18 م.

لقد مكّنا العمل الميداني من الوقوف على انتظام جبل وولات على شاكلة أحواض مائية، ويمثل الحوض المائي لوادي الشعرة أحد أبرز هذه الأحواض بالجبل وهو يتميز بوجود تجانس على المستوى الجغرافي والمعماري وحتى البشري (القبلي) فكل سكانه ينتمون على ما يبدو إلى "خمس أولاد إسماعيل" وبالتالي فإن حوض وادي الشعرة يمثل أحد الأجزاء المكونة لهذا الخمس المستحوذ على أكبر مساحة بالجبل.

وقد تبين من خلال هذه الدراسة أن فهم جبل وولات ودراسة انتظامه المجالي يجب أن يكون من زاوية الأحواض المائية وتتبع أشكال التعمير بها وربطها بالتوطن البشري ومنه يمكن تكوين صورة كاملة حول الجبل وحول أخماسه.

⁴⁸ المكني، ص 85.

المصادر والمراجع

- ابن الصبّاغ محمد بن أبي القاسم الحميري، 2012، [يرجّح تأليفه]، مناقب أبي علي سالم التباسي تلميذ أبي الحسن الشاذلي، تحقيق أحمد الباهي، سوسة، دار كونتراست للنشر، سوسة.
- ابن عظوم أبو الفضل أبو القاسم بن محمد مرزوق بن عبد الجليل بن محمد المرادي، 2006، كتاب الأجوبة، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، بيت الحكمة، تونس.
- الإدرسي أبو عبد الله محمد بن محمد الحمودي، 2007، أنس المهج وروض الفرج، حقق الوافي نوحى قسم شمال إفريقيا وبلاد السودان، الرباط، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
- الأرشيف الوطني التونسي، 1148 - 1151 هـ الدفتر عدد 15، مقايض ومصاريف.
- الأرشيف الوطني التونسي، الدفتر عدد 26.
- الأرشيف الوطني التونسي، 1175 - 1181 هـ الدفتر عدد 120، مداخيل الدولة من الدوايا والخطايا والأعشار والالزم.
- الأرشيف الوطني التونسي، 1155 - 1156 هـ الدفتر عدد 34، مداخيل الدولة من الدوايا والخطايا.
- الباهي أحمد، 2013، "فج سببية: أحد المواضع على طريق القيروان-سببية في العصر الوسيط المتقدم"، في سمير القيزاني نشر، العمران والعمارة في المتوسط خلال العهدين القديم والوسيط في ضوء المصادر الأثرية والأدبية، فعاليات الملتقى الدولي الثاني، 24-25-26 نوفمبر 2011، تونس، المعهد العالي للعلوم الإنسانية بتونس، ص 23-41.
- البكري أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز، 1992، المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، تونس، بيت الحكمة - الدار العربية للكتاب.
- حسن محمد، 1999، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، تونس.
- حسن محمد، 2004، الجغرافية التاريخية لإفريقية من القرن الأول إلى القرن التاسع VII - XV م، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت.
- الخريطة الطبوغرافية 1/50000 حفوز رقم 62.
- الصغير بن يوسف محمد بن محمد الكورغلي الباجي الحنفي، 1998، المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تري، تحقيق أحمد الطويلي، تونس، المطبعة العصرية.
- الصويد جهاد، 2011، التعمير والمعمار بجبل برقو دراسة إثنوآثرية، شهادة دكتوراه في علوم التراث، تحت إشراف الأستاذة منيرة الرمادي - شابوطو، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس.
- الصويد جهاد، 2013، "دشرة بو عبد الله (حمادة كسرى): الخصائص الأثرية وإشكالية التأريخ"، القيروان وجهتها، دراسات جديدة في الآثار والتراث، أعمال الندوة العلمية الدولية الثالثة لقسم علم الآثار (القيروان 1 - 4 أفريل 2009)، نصوص جمعها وأعدّها للنشر النوري بوخشم وجعفر بن نصر وأحمد الباهي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان - مركز النشر الجامعي، تونس، ص 135 - 143.
- الصويد جهاد، 2015، "المشهد التعميري بجبل السرج بين معطيات المصادر والشواهد الأثرية"، الجبل والسهل في حوض المتوسط، أعمال الندوة العلمية الدولية الرابعة (القيروان 5، 6 و 7 ديسمبر 2011)، نصوص جمعها وأعدّها للنشر جعفر بن نصر والنوري بوخشم، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان، تونس، ص 77 - 85.



الصويد جهاد، 2016، "قرية العرمة بجبل وسلات: دراسة أثرية وتاريخية"، الأرياف والآثار الريفية ببلاد المغرب والمتوسط، أعمال الندوة العلمية الدولية السادسة (القيروان: 14، 15 و 16 أبريل 2016)، نصوص جمعها وأعدّها للنشر جعفر بن نصر ومراد عرار والنوري بوخشيم، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان، تونس، ص 63 - 104.

الصويد جهاد، 2021، "بلاد حمامة (جبل وسلات) الشواهد الأثرية والخصائص المحلية"، البيزاقيوم، البيزاقية، المزاقي: اشتغال الأرض، التعمير وأنماط العيش، فعاليات الندوة العلمية الدولية السادسة لمخبر البحث "اشتغال الأرض والتعمير وأنماط العيش في بلاد المغرب في العصور القديمة والوسطى"، سوسة 13 - 14 - 15 جوان 2019، أعدّها للنشر عبد اللطيف المرابط، سوسة، ص 89 - 110.

عرعار مراد، 1999، الأربس وناحيتها إلى حدود القرن 6 هـ / 12 م، بحث لنيل شهادة الدراسات المعمقة في التاريخ الوسيط، إشراف الأستاذ محمد حسن، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس.

الغمري علي بن ميمون [منسوب إليه]، 2021، مناقب أحمد الغوث التباسي، ويلها السلسلة التباسية، لمجهول حررها سنة 1333 هـ / 1914 م، تحقيق أحمد الباهي، تونس، مجمع الأطرش للتوزيع.

الفهري نافع، 2000، شبكة الطرقات بإفريقية خلال القرون الخمس الأولى للهجرة، إشراف الأستاذة منيرة شابوطو، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس.

المرابط رياض، 2009، "الانتماء المذهبي لجبل وسلات بين معطيات النصوص والمعطيات الأثرية"، القيروان وجهتها، اكتشافات جديدة، مقاربات جديدة، أعمال الندوة العلمية الدولية الثانية لقسم علم الآثار (القيروان 6 - 8 مارس 2006)، نصوص جمعها أحمد الباهي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان، مسكيلياني للنشر، تونس، ص 137-156.

المسراتي القيرواني جمال الدين بن محمد، 2009، مناقب أبي القاسم المسراتي المعروف بصاحب الدربالة، حققه وقدم له ووضع فهارسه أحمد الباهي، دار كونتراست للنشر، سوسة.

المكني عبد الواحد، د. ت.، شتات أهل وسلات من 1762 حتى بداية القرن العشرين، دار سحر للنشر، تونس. الوسلاقي عامر، 1994، المشاهد الطبيعية في تونس، تونس.

BEN NASR J., 2001-2002, « Quatre abris peints découverts au Jebel Ousselat (Tunisie Centrale) », in *Préhistoire Anthropologie Méditerranéennes*, t.10 -11, pp. 159-166.

BERGAOUI Sami et GAMMAR A. M., 1992, « Typologie des citernes et barrages de jebel Ouesslet (Dorsale tunisienne) », in *Les Cahiers de Tunisie*, n°151-152-153-154, pp.197-226.

CRESSIER Patrice, 1984, « Le château et la division territoriale dans l'Alpujarra médiévale : du hisn à la Ta'a », in *Mélanges de la Casa de Velázquez*, t 20, pp. 115-144.

DESPOIS Jean, 1959, « Le Djebel Ousselat, les Ousseltiya et les Kooub », in *Les Cahiers de Tunisie*, n° 28, pp. 407-427.

FREMONT F., 1968, *La région du Djebel Serj (Dorsale tunisienne) : étude géomorphologique*, Faculté des lettres et Sciences Humaines de Caen.

GRAGUEB A., HARBI-RIAH A., M'TIMET A. et ZOUGHLAMI J., 1991, « Nouvelles découvertes de représentations rupestres en Tunisie : Jebel Ousselat (Tunisie Centrale) », in *Bulletin des Travaux de l'institut National d'Archéologie et d'Art de Tunis*, fasc. IV, pp. 41-64.



TURKI M.M., 1988, Polycinématique et contrôle sédimentaire associée sur la cicatrice Zaghouan – Nebhene, Revue des sciences de la terre, (mémoire) Vol 7.

YAHIA-ACHECHE S., 2009, « Stations rupestres et habitats préhistoriques du Jebel Ousselat : résultats préliminaires de plusieurs missions de prospection », in *Kairouan et sa Région : nouvelles découvertes, nouvelles approches*, Actes du deuxième colloque international organisé par le département d'Archéologie à la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines de Kairouan (6-8 Mars 2006), A. El Bahi (ed.), Tunis, Miskiliani éditions, pp. 35-46.